نشأة الأنثروبولوجيا في البلدان المغاربية:

1. نشأة الأنثروبولوجيا في الجزائر:

واقع الانتروبولوجيا قبل الاستقلال:

إذا أردنا الحديث عن تاريخ الانتروبولوجيا في الجزائر، فإننا نعيد ما قدمه مولود معمري الذي يميز ثلاث حقب: الأولى، تلك التي سماها الرائدة، و هي عصر الحملات العسكرية. الانتروبولوجيا حينئذ كانت عبارة عن وقائع لضباط عسكريين الذين كان همهم اكتشاف الميدان و إنتاج منوجرافيات Monographiques عن الأقاليم والسكان الذين يقطنونها. الحقبة الثانية: هي فترة الإداريين. و لم يكن همها الوحيد إحصاء السكان ووصف بعض عاداتهم. بل دراسة النظم التي تؤسس للروابط الاجتماعية (كالزوايا مثلا). وأثناء تلك الفترة رمت (الاثنولوجيا الاستعمارية) قواعدها الأولى بدء بالتخلص من الانتروبولوجيا الفيزيقية Anthropologie Physique ومن ثم بدأت تظهر مواضيع لها علاقة مع النظام الاجتماعي، المعتقدات و النظم القانونية والدينية.

الفترة الثالثة هي فترة الجامعيين. ظهرت في نهاية القرن 19 مع الأساتذة الجامعيين الذين خلفوا العسكريين: نخبة من الأساتذة مختصين في القانون قاموا بمساءلة معاني و شفرات و طرق تشريعات الأهالي، بينما أساتذة اللسانيات درسوا اللهجات و اللغات العامية....و تجدر الإشارة هنا إلى أن النزوات السياسية متواجدة بدرجة أقل أو أكثر في الأبحاث.

إن الإطار التاريخي للاستعمار سوف يشجع إنتاج فكر جديد موجه إلى معرفة الشعوب المهيمن عليها. هواة، عسكريين أو إداريين سيحاولون فهم التنظيم الاجتماعي والروحي للسكان. وبعد ذلك أخذ زمام أمور الأبحاث نخبة من العلماء الذين تركوا لنا في الحقيقة أبحاثا ذات قيمة عالية. إذا أردنا فحص أدبيات الاثنولوجيا في الحقبة الاستعمارية فإن القبائل و بالأخص البربر أخذوا حصة الأسد في انشغالات العصر. و كان التاريخ الاثنولوجي لتلك الفترة حافلا بالأسماء مثل Hanoteau الجنرال Daumas Eugène و .Louis Mari Rinn.....الخ

ولما تمت تسوية المسائل المورفولوجية الاجتماعية و كذلك اللهجات المحلية ووصف وتحديد الأقاليم، جاء دور المعتقدات، وكانت جلها تتسم بصفة الاستشراق Orientalisme وكان يجب الانتظار حتى سنة 1925 لمشاهدة جامعيين من أمثال Thérèse Rivière و Germaine Tillion و Jeane Jouin وآخرون.

إن كاتبة «الحريم و أبناء العمومةLe harem et les cousins» تابعت محاضرات «مارسال موس» قبل أن تستغرق أربع سنوات في الأوراس بالجزائر. و بعد مرورها على السجون النازية تعود إلى الجزائر في مهمة رسمية سنة 1950. التقارير التي كتبتها لم تكن إطلاقا مجاملة للإدارة الاستعمارية. إن «G. Tillion» ترمز إلى الالتزام الفكري وكذلك إلى القطيعة الابستيمولوجية والتي من خلالها أسست لنظرة جديدة و حقبة جديدة للاثنولوجيا الاستعمارية.

و في منحى آخر فإن «Jacques Berque» الذي يعتبر من الوجوه البارزة في حقل الدراسات المغاربية. و من خلال كتابه الكبير(البناءات الاجتماعية في أعالي الأطلس) (les structures sociales du haut atlas و الذي من خلاله تبنى بوضوح (الانتروبولوجيا التاريخية). إن أعماله الأولى حول المنهج القانوني المغاربي، حول قانون الأعراف، حول العلاقة بين العادات البربرية والعادات الإسلامية قامت بإرساء لبنات (الانتروبولوجيا المغاربية). وكان بحق ملهم للأنتروبولوجيين المغاربيين في نهاية الاستعمار.

أعمال «Bourdieu» تضيف زخما علميا كبيرا للبعد العلمي للانثروبولوجيا بالكشف عن المنطق الذي يحدد المجتمع الجزائري. كل هذه الأسماء تحولت إلى معالم في هذا العلم، و للأسف فإنهم لم ينصفوا و لم يعطوا المكانة اللائقة بهم حتى أنهم و صفوا جورا بانتمائهم إلى الحقبة الاستعمارية للانثروبولوجيا.

واقع الانتروبولوجيا بعد الاستقلال:

إن إعادة إدخال الأنثروبولوجيا في الجزائر كعلم أكثر نبلا يعود أساسا إلى أزمة علم الاجتماع في سنوات 1970و1980 الذي قلص إلى خطاب يتبع الإنجازات الوطنية. و كان يتطرق إلى مواضيع عامة: الريف، المؤسسة، الثورة الزراعية متجاهلا الأشخاص و الأفراد أو الفاعلين الذين يحملون هذه الديناميات. وكان ذلك إيذانا بظهور أو إعادة ظهور الأنثروبولوجيا.

في خضم التجاذب السياسي والاجتماعي والفكري، فإن إعادة ميلاد الأنثروبولوجيا في الجزائر يعود أيضا إلى الظروف المحلية الخاصة. إن علم الاجتماع الذي عزف عن دراسة الحقل الديني ترك فراغات كبيرة في الوسط الاجتماعي الذي أعاد استثمار الحقل الديني بطريقة فيها نوع من الإنتقام و كان همهم الوحيد إثبات (لماديي) الأمس بان الروح يعلو عن المادة وأن روح الشعب يتموقع في قيمه الروحية.

و هناك أيضا الجانب السياسي. إن الدين إذا اعتبرناه بأنه يكون اللحمة الأساسية للمجتمع فإنه الوحيد الذي يمكن أن يثبت ويؤكد الوحدة الوطنية التي لم يستطع الفكر الاشتراكي إرساءها. و على هذا الأساس فإن فشل مشروع المجتمع أعطى الفرصة للانثروبولوجيا للعودة إلى مسائل تعتبر من قبل طابوهات.

الانتروبولوجيا في الجامعات:

في البداية الأنثروبولوجيا كانت تنشط في مراكز ثقافية تحت تسميات مختلفة إلى أن تبناها ما يعرف بـــ: «مركز البحث في الأنثروبولوجيا الإجتماعية والثقافية crasc» أين تتعايش ميادين متنوعة من العلوم الاجتماعية والإنسانية. ومن ثم فقد إنضم إلى السوسيولوجيين والمؤرخين علماء النفس والجغرافيين والمعماريين. من هنا فان الأنثروبولوجيا التي طوردت منذ البداية لجأت إلى المراكز للإءتمان والاحتماء بعلوم تربطها بها علاقة دموية. وعودتها إلى مقاعد الجامعات تعتبر محتشمة. فكانت تدرس كمادة فقط في بعض الاختصاصات لتوضيح الخصائص الثقافية مثل جامعة تلمسان (ماجستير في الثقافة الشعبية) وفي تيزي وزو(معهد اللغات و الثقافة الأمازيغية). وكانت مهمتها توضيح هذا المفهوم الغامض والمعقد الذي هو(الثقافة الشعبية).

لكن المحاولة الأولى الحقيقية كانت في جامعة قسنطينة بالتعاون مع «مركز البحث في الأنثروبولوجيا الإجتماعية والثقافية crasc» أين فتحوا إختصاص ما بعد التدرج في الانتروبولوجيا الثقافية والاجتماعية. وكذلك معهد علم الاجتماع في وهران الذي فتح أيضا ماجستير في الأنثروبولوجيا. لكن المشكلة الرئيسية تتمثل في كون الأساتذة الذين لديهم الحق في الإشراف على التدريس لا ينتمون دائما إلى الاختصاص.

إن الوعي بضرورة النقد المتفحص للإشكاليات الاجتماعية والثقافية لمجتمعاتنا و كذا أهمية المقاربات المقارنة خاصة في مجال التراث الثقافي الإرث الاجتماعي أصبحت هاجسا حقيقيا لمفكرين جزائريين لتوسيع فكرة تدريس الأنثروبولوجيا كاختصاص مستقل في الجامعات الجزائرية. وكان لزاما بعث دراسات ترقى إلى مستوى هذا العلم الذي يقدم لنا إرثا ضخما من المعارف المتراكمة على الصعيد العالمي و تنمية مناهج نقدية حول الأعمال التي كان موضوعها الجزائر.

و لما كان الأنثروبولجيون يستهويهم الميدان بمعنى أنهم يترجمون أقوالهم في الواقع. فقد سعى نخبة من المفكرين الجزائريين سعيا حثيثا لإنشاء هذا العلم ولم تكن الظروف سهلة بل اكتنفتها صعاب مختلفة. إن محاولة الكشف عن هذه الصعاب بعد اللمحة التاريخية عن واقع الانتروبولوجيا في الجزائر ليس تحدي. الرهانات السياسية وأدلجة العلوم من بين أهم الأسباب في نظرنا.

لكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن، لماذا تم اختيار خنشلة بالضبط؟ هل يعود ذلك إلى كون جل أعمال الأنثروبولوجيين انحصرت بدرجة كبيرة حول منطقة القبائل خاصة في نهاية النصف الأول من القرن 19؟ وبالتالي فإن خنشلة تمكن من إرساء دراسات مقارنة جديدة؟ هل الأوراس يعتبر ميدانا خصبا لدراسة الخصائص الثقافية والاجتماعية بمقاربات أنثروبولوجية؟ دون أن نرمي هذه الفرضيات. إن اندهاشنا عميق حينما نعرف بأن كاتبا مثل:«P.A. Fevrier»

في كتابه «مقاربة المغرب الروماني» يعترف بأن «تاريخ الأوراس لا يزال مجهولا» و بدرجة ما يحتوي على ألغاز، ثم يضيف: «إنني أراهن على أنه سيكون أكثر تعقيدا مما نتصور في غالب الأحيان»[1].

و من جانبه فإن: «Louis Leschi» لا يتردد في القول بأن: « دراسة التنظيم الاقتصادي (...) بجنوب قسنطينة من شأنه أن يعطينا إيضاحات جديدة... »[2]. ولعل من المناسب أن نذكر أيضا شهادة أخرى لمؤرخ فرنسي« Henri Fournel» الذي يقدم في كتابه «Richesse de l'Algérie» هذا الحديث: «قليلا نحو غرب بغاي[2]، يبدأ "جبل الاوراس"، جبال مشهورة منذ قرون بالذهنية التحررية لسكانه، بصرامة قادته الذين تعاقبوا على القيادة والذين قاوموا ضد الغزاة المتعاقبين على المغرب، حتى لما كان هذا القائد إمرأة وتسمى الكاهنة. تحت الوندال، تحت الرومان، حتى ضد الفتوحات الإسلامية، سكان الأوراس أبدوا عدم الرضوخ مهيأون للمقاومة ولا يقبلون أي نوع من السيطرة». لا أحد يناقض هذه المقولة المستمدة من القراءة المتفحصة لكتاب رومانيين و بيزنطيين وعرب. هذا بالإضافة إلى حرب 1954 التي كانت المنطقة مسرحا لكثير من أحداثها.

2. نشأة الأنثروبولوجيا في تونس

في مقال بعنوان "من هنا وهناك: الأنثروبولوجيا في تونس[ii]"، تحاول الأنثروبولوجية الفرنسية ستيفاني بوسال عرض كرونولوجيا تطور حضور الأنثروبولوجيا كاختصاص في الفضاء الجامعيّ التونسيّ، ويمكن تلخيص هذا المقال كالتالي:

يعتبر عمل جان دوفينيو، "الشبيكة(1968) [iii]"، مع مجموعة من طلبته، أول بحث أنثروبولوجيّ فعليّ يُنجز في إطار الجامعة التونسيّة، على الرغم من اعتباره رسميا عملا سوسيولوجيا. ولكن اختفت، منذ ذلك الحين، وسريعا، الأنثروبولوجيا من الساحة الجامعيّة والتعليميّة، ولم تلعب أي دور جديّ في مُراكمة المعارف التي تخص المُجتمع التونسيّ الاّ بطريقة جذمورية واختراقات هامشية هنا وهناك. وقد رافقت ندرة الإنتاج الأنثروبولوجيّ وصمة سلبيّة، كما حدث للمؤرّخة الفرنسية التونسية لوسات فالنسي(Lucette Valensi) ، حين اشتغلت على تاريخ الهامشي في تونس كتاريخ اليهود والعبيد. اذ تم اعتبار عملها ايحاءً لتاريخ ولّى وانتهى و لم يعد راهنيّا الآن، بل تعامل البعض مع عملها على أنّه صبغٌ للمُجتمع التونسيّ بالفولكلوريّة.

ظلّت الحال هكذا، حتى نهاية السبعينيات، حين تبنّى المعهد الوطنيّ للتراث هذا الاختصاص باعتباره قادرا على الإشارة الى تراث يجب حمايته، في سياق تحولات كبيرة نتيجة العمل المتسارع والمُحاولات التي تخوضها دولة الاستقلال لعصرنة المجتمع. لم يُسمح للأنثروبولوجيا بدراسة بعض المواضيع الأخرى، خلافا لاختزالها في اختصاص فولكلوريّ، إلاّ مع

[1] Jean Morizot : « L'aurès ou la montagne rebelle, l'harmattan 1996 ». p. 17

[2] مدينة رومانية قديمة قريبة من مدينة خنشلة

الأنثروبولوجيّة والمؤرّخة التونسيّة جاكلين الشابي، التي ساهمت، خلال التسعينيات، في بعث "المركز التونسيّ المغاربيّ للتوثيق) "سيصبح "معهد البحوث المغاربيّة المعاصرة "-IRMC-بعد ذلك .(أصبحت الأنثروبولوجيا، بفضل هذه المؤسسة وبفضل النزعة النظريّة للدراسات التاريخيّة التي تهتم بالهامشيّ (مدرسة الحوليات)، اختصاصا طريفا، وجب اكتشافه من جديد.

ساهم هذا الاهتمام الجديد في إضافة مادة الأنثروبولوجيا التاريخيّة إلى قسم التاريخ بجامعة منوبة. كما بُعث ماجستير أنثروبولوجيا في كلية الحقوق والعلوم الإنسانيّة تونس-المنار. ولكنه لم يدم كفاية الاّ لتنشئة دفعة واحدة من الطلبة. لا يود كثيرون الحديث عن أسباب ذلك، إلاّ أنّ " رغبة مأسسة" هذا الاختصاص، كما تقول بوسال، دفعت، سنة 2008، إلى إنشاء "الجمعيّة التونسيّة للأنثروبولوجيا الاجتماعيّة والثقافيّة (ATASC) بعد عمل وتعاون متواصل لكلّ من عماد الملّيتي، سهام نجار، عبد القادر زغل وبمعونة ليليا بن سالم أيضا. ساهم هؤلاء السوسيولوجيّون في تشكيل إطار بحثيّ جديد يُقرّون من خلاله أنّ المشروع السوسيولوجي لم يكن قادرا وحده، وبعد انتهاء الزخم الذي رافقه حد الثمانينيات، على صياغة برنامج بحثي جديد يستطيع أن يبادر بفهم التغيرات التي تعيد تشكيل المجتمع التونسيّ.

في نفس الخط، أطّرت سهام النجار، سنة 2013، عملا جماعيا تحت يافطة "سوسيو-أنثروبولوجيّ" بعنوان "التفكير في المجتمع التونسي اليوم[iv]"، يحاول في إطاره المساهمون بحث بعض مظاهر الحياة اليومية في مُجتمع مُهتزّ وحائر بعد أحداث "ثورة" 17 كانون الأول/ديسمبر 14 كانون الثاني/جانفي 2011. لقي الكتاب ترحيبا كبيرا وقد اعتُبر تغيّرا جديا في نمط إنتاج معارف العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة في تونس، مما أتاح، سنة 2014، لكل من سهام النجار وعماد المليتي، بعث أول إجازة مُستقلّة للأنثروبولوجيا، وقد صادف أيضا أن كانت الأمور مُشابهة في جامعة الفنون والعلوم الإنسانيّة في سوسة، اذ بُعثت الإجازة نفسها، خلال السنة عينها، بفضل عمل أستاذ الحضارة العربية المُنصف بن عبد الجليل.

يمكن أن نستنتج، من خلال هذه المحطّات التاريخيّة، أنّ الأنثروبولوجيا عجزت عن تحصيل شروط الاعتراف بأهميتها إلا مؤخرّا، فما هي أسباب هذا التأخير؟

-IIأسباب التأخير

-1 الأنثروبولوجيا الاستعماريّة

نشأت الأنثروبولوجيا كغيرها من العلوم الإنسانيّة في سياق القرن التاسع عشر، وقد شهد هذا القرن، كما يُبّين الأنثريولوجيّ النرويجي توماس هيلند اركسون (Thomas Hylland Eriksen

(، انتهاء مخاض معرفي، بدأ منذ مئتي سنة، ببروز الانسان كموضوع جديد لأربعة أنماط من المعرفة العلمية: السيكولوجيا، السوسيولوجيا، الاقتصاد والأنثروبولوجيا. اختصّ النمط الأول بتفسير طبيعة وديناميكية الآليات الذهنيّة للنفس البشريّة. أما النمط الثاني فقد حاول فهم وتفسير التحولات السوسيولوجيّة التي طبعت بنية المجتمعات الصناعية. واهتّم النمط الثالث بالإحاطة بعمليات الإنتاج والتوزيع والاستهلاك في سياق مؤسسة السوق التي تبلورت إثر الثورة الصناعية. أما الأنثروبولوجيا فقد اعتُبرت نمطا معرفيّا يخصّ تلك الشعوب التقليدية ـــ كالشعوب المُسلمة ـــ والمجموعات البشرية "البدائية" التي تنتشر خاصة في افريقيا، أستراليا وأميركا اللاتينيّة.

يَظهر سريعا التباين الحاد بين مواضيع الأنماط المعرفيّة الثلاثة الأولى والأنثروبولوجيا باعتبار أنّ السيكولوجيا، السوسيولوجيا والاقتصاد تدرس بالأساس الانسان الغربيّ، أما الأنثروبولوجيا فتجد موضوعها منتشرا على امتداد جغرافيا "الآخر". وقد تأسس هذا التقسيم على عدّة مسلمات ضمنيّة ومعلنة، أهمّها أنّ الثقافة الغربيّة هي أعلى وأرقى الثقافات تطورا وتقدما. هذا التصور الأورو-مركزي، حسب طلال الأسد، هو جوهر الأيدولوجيّة الاستعماريّة التي دفعت الجيوش الغربيّة نهاية القرن التاسع عشر إلى احتلال جزء كبير من جغرافيا العالم، التي يسكنها "آخر" تقليديّ وبدائيّ يجب "مُساعدته على التحضّر."

أشار بالفعل النقد اللاذع الذي قاده الأنثروبولوجيّون أنفسهم، بداية السبعينيات وحتى نهاية التسعينيات، إلى تورط الأنثروبولوجيا كاختصاص، والمُشتغلين بها، في صياغة أسس التصوّر الاستعماريّ، أقله بنظرياتهم التطوريّة تارة ـــ التي تفيد بوجود مراحل تطورية حضاريّة وثقافيّة –، والوظيفيّة التي تفترض أنّ تلك المجتمعات تمتاز "بمزاج بارد" يجعلها دائما تعيد إنتاج نفسها في صيغة ثابتة وتقليديّة، الخ. ولكن تورّط الأنثروبولوجيا بالعمل لفائدة الأجندة الاستعماريّة لا يُلغي، كما يشير ديفيد غريبر في كتابه "جذاذات أنثروبولوجيا لا سلطويّة[v]"، إلى قدرة هذا الاختصاص على أن يكون من أفضل الأطر النقديّة الاجتماعيّة الجدية التي تستطيع تشريح شكل الوجود الإنسانيّ الراهن.

رغم ذلك النقد، ظلّت الأنثروبولوجيا، بالنسبة للكثيرين، مقترنة بالأيديولوجيا الاستعماريّة والتصور الأورو-مركزيّ للآخر. هذا ما جعل الحركات التحرّرية وجل دول ما بعد الاستقلال تنظر بعين الريبة نحوها. لا يزال هذا التصور متجذرا إلى اليوم، حيث أسمع كثيرا، عند تقديم دراستي الجامعيّة للآخرين ـــ إذا ما حالفني الحظ ومّيزوا الأنثروبولوجيا عن الأركيولوجيا أو السوسيولوجيا ـــ أنّني أدرس اختصاصا استعماريا!

-2الدولة الحديثة والمشروع التنمويّ – سوسيولوجيا

بالنسبة إلى دولة الاستقلال التونسيّة، كان الرهان الأول هو "تعصير المجتمع"، لذلك جعلت كل اختياراتها الاقتصاديّة، السياسيّة والتعليميّة منكبّة على هذه المهمّة. وقد كان أوّل تَجسيد فعليّ لهذا المشروع، كما تُبيّن بدقة السوسيولوجيّة التونسية ليليا بن سالم في حوار لها مع سيلفي مازيلا (Sylvie Mazzella)، هو تأسيس مركز الدراسات الاجتماعيّة، وبعث إجازة في علم الاجتماع سنة 1959 في إطار المدرسة العليا للدراسات. وكان الإشكال التنمويّ أيضا الدافع لإنشاء "مركز البحوث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية" سنة 1962. إذن، ساهم جمع من السوسيولوجيّين والأنثروبولوجيّين الفرنسيّين على رأسهم جان ديفينيو (Jean Duvignaud) بالتأكيد على مسؤولية السوسيولوجيا في لعب دور تأسيسيّ لمعرفة ذاتيّة ينتجها المجتمع عن نفسه.

كانت الأنثروبولوجيا كاختصاص، خلال فترة الستينيات، تحمل دلالتين سلبيّتين — زيادة لكونها ذات شبهات استعمارية — بالنسبة لدول الاستقلال التي تود تعصير بناها الاجتماعيّة: أولا، كانت الدراسات التي تُخاض في إطار هذا الاختصاص تعني حصرا وأساسا دراسة المجتمعات التقليديّة و "البدائية". ذلك باعتبار أنّ العمل الإثنوغرافيّ يعني ضمنيّا أنّ المُجتمع المدروس هو مُجتمع ما قبل صناعيّ في أحسن الأحوال. ولم يتغير موضوع الدراسات الإثنوغرافيّة إلا مؤخرا، مع النقد الذي قاده كل من جورج بالنديه (George Balandier) و مارك أوجيه (Mark Augé) وغيرهما، مع ما أصبح يعرف اليوم بأنثروبولوجيا المجتمعات المعاصرة.

أما ثانيا، تفترض دراسة مجتمع ما أنثروبولوجياً أنّ المجتمع نفسه غير قادر على إنتاج معرفة "علميّة" تخصّه، فجلّ المجتمعات والثقافات المدروسة كانت ثقافات "ما قبل كتابيّة"، تتركز كل معارفها حول "تمركز هوويّ حول ذاته" ولا تستطيع أن تقول أيّ شيء "قابل للفهم" بناءً على طابعها الشفاهي وحده. لذلك كانت إحدى مهام الإثنوغرافيّ هي صياغة خطاب مفهوم ومساعدة تلك الثقافة على أن "تعي وتفهم" ذاتها.

إذن ساهمت هذه التمثّلات العامة في تشكيل المشروع التونسيّ التعليميّ الحداثيّ الذي يقوم في جزء منه، حسب منذر الكيلاني، على كبت وتجنّب الاعتراف بذلك الجانب من المجتمع التونسيّ الذي كان "تقليديّا" (تم رصد عودة هذا المكبوت الاجتماعي إثر انتفاضة 14/17، ويمكن العودة لدراسة أجراها محمد نجيب بوطالب بعنوان "القبلية والجهويّة في المجتمع العربيّ المعاصر: دراسة مقارنة للثورتين التونسيّة والليبيّة"). لهذا لعبت السوسيولوجيا دور الأسد في تشكيل معرفة تخصّ المجتمع التونسيّ، باعتبارها، كما أشرت، تعني من ضمن ما تعنيه أنّ المُجتمع أصبح قادرا على معرفة نفسه في إطار مرحلة عَصرنة البلاد كما حدث في البلدان الصناعيّة الأولى. هذه الأسباب، وغيرها، أرجأت بعث إجازة في اختصاص الأنثروبولوجيا حتى وقت متأخر مقارنة ببقية البلدان المماثلة (مصر والجزائر مثلا).